كلهم مفترسون : إسرائيل والجمل والسرطان

أزالوا الورم مرتين من فخذه المنحوس، وكان كلّ ما يهمه فى كل مرة أن يعود إلى ارتداء بنطلوناته الشارلستون، وها هو الورم اللعين يطل عليه للمرة الثالثة فى عناد مصحوب بحريق يمزق أعصابه بجانب غيظه المقيم وهو يرى فرسته الجامحة تركض بعيدًا عن مضماره، وأصبحا ـ هو وفوزية ـ غريبين لا يلتقيان إلا نادرًا، فالسيد النحال منذ أن ضمها إلى مملكته راح يمعن فى شغلها حتى فى يوم إجازتها بترتيب زيارات منزلية تقوم فيها بتجهيز التسريحات وعمل المكياج لهوانم الطبقة الأكثر علوًا.

كان الغيظ والقلق يسحقان أعصابه ويأكلان خلايا جسده.. وهو يحاول أن يستقر واقفًا على رجله اليمنى متأوهًا بصوت مكتوم.

وتصادف أن كان زبونه المستقر أمامه على كرسى الحلاقة طبيبًا طبيبًا، فسأله:

ـ «ما ذا بك يا طاهر؟»

ـ «نار.. نار يا دكتور ترعى فى ساقى»

ومن موقعه البعيد ناداه مصطفى عباس:

ـ «خذ مُسكن يا أسطى.. المشرط مشى فى ساقك مرتين»

انتبه الطبيب إلى حديث المعلم، فراح يتقصى خبر هذا المشرط الذى أزال الكيس الدهنى مرتين دون عمل تحاليل لهذا الكيس قبل أو بعد إزالته.. وراح يسألهما عن المستشفى، ثم علق على أدائها بما يعنى أنه أداء لا يصلح لحيوان، وعرف أن هذا الورم العائد مجددًا أتى على غير ما سبق أتى ضخمًا، كأنما نما فجأة دون ترعرع..

بدا الهم على وجه الطبيب ونصحه أن يوافيه بعيادته فى نفس الليلة، ثم نصح معلمه أن

يمنحه إجازة.

* * *

وبعد أيام من الفحوص والكشوفات والتحاليل وابتلاع الحبوب المسكنة وغرس الإبر المخدرة واجهه الطبيب بكل الصراحة المزعجة:

ـ «أنت فى سباق مع الموت، أخشى أن تصعد هذه النيران إلى صدرك.. إنها نيران متوحشة تنتشر بلا استئذان سنتخلص منها..»

ـ «مم تتخلصون؟.. من ساقى؟»

ـ «تضحية لا بد منها.. حتى لا تضحى بكل حياتك»

ـ «التضحيه بحياتى أفضل..»

* * *

واختفى من أمام الطبيب، ثم اختفى فى مسكنه و هو مشلول عن الحركة والتفكير يطوف الدنيا بعقله ويتحسس حياته بروح مسلوبة تهوى إلى قرار سحيق.

* * *

وفى عين شمس اقتربت منها أمها وهى مأخوذة بالتردد: «فوزية لماذا لا تسألين عن طاهر؟ أراك يا ابنتى كأنما أعطيت ظهرك لخطيبك وأنت مشغولة بعملك الجديد.»

أخفت نظراتها بعيدًا عن أمها:

ـ «ألا ترى أننى مشغولة يا أمى حتى فى يوم إجازتى وأعود دائمًا مرهقة..؟ المحل لا يتوقف عن العمل.. حتى إننى طلبت من الأستاذ أن يوظف فتاة معى..»

ـ «وزوجته.. ألا تساعدك؟..»

ـ «طلب منها أن تتفرغ لدراستها، ولا تهتم بالمحل إلا فى إجازتها..»

تمتمت أمها:

ـ «أحسن»

فتمتمت فوزية خلفها:

ـ «طبعًا أحسن. ولكن ما الذى ذكرك بطاهر الليلة؟»

وبصوت كسير قالت لها أمها: «مصطفى عباس أكد علىّ أن تكونى عنده فى المحل باكرًا فى العاشرة صباحًا للضرورة، ربنا يستر»

* * *

صحا من غفوته الدامعة فوجدها أمامه، فوزية أتت بصحبة معلمه، ففهم أن مأساته صارت ملكًا للجميع ورهن تصرفهم، واجهها بابتسامة:

ـ «ازددت جمالاً ورونقًا يا فوزية.»

ـ «إن كان إطراء فشكرًا لك، وإن كان تأنيبًا فلا تعذبنى..»

ـ «لا والله يا بنت الناس، إنها حسرتى مذابة فى الغزل الذى أحبه معك.»

ـ «لن تفقد رقتك ودماثتك..»

ـ «ولكنى سأفقد حياتي. وأنت تاجها اللامع.»

ـ «الحياة..؟ هناك من يعيشونها بإحكام وهم مفقودون. وأنا منهم.»

ـ «أتقولين هذا عن نفسك بعد أن عرفت طريقك؟»

ـ «اليوم فقط عرفت أننى فقدته.. هناك مرارة فى حلقى لم يسبق أن ذقتها.»

ـ «ألم يأتك خبرى إلا اليوم؟.»

نكست رأسها إلى أسفل لتوارى دموعها، فاقترب منه معلمه بصوته المتهدج:

ـ «ياطاهر.. الطبيب علىّ حق.. لاتعارضه أتيت بفوزية حتى تقنعك»

فقال طاهر:

«كلما تخيلت نفسى أسير بساق واحدة وبجانبى فتاة أشفق على فوزية أن تكون هى هذه الفتاة»

أتاه صوتها كالأنين تخالطه الدموع:

ـ «لا تشفق على.. سأحملك فوق رأسى»

فقال بحزم: «إن لم تحملنى ساقاى.. فالموت واجب».

وتعجب لرائحة الحزن التى تهب عليه من الماضى البعيد، وأحاديث الطفولة البريئة عندما كانوا يجلسون على مقربة من الموتى وهم يدفنون زكريا مسعود، وأخذه التشاؤم

عندما هلت عليه تلك الرائحة التى جلبت إلى خياله صورة البلد بكل شوارعها المتربة وأزقتها الملتوية، واحتلت جانبًا من حواسه رائحة مجرور الجامع وكوم السباخ المستلقى تحت بحيرة ماء الفسيخ العطن.

وكان مصطفى عباس يجلس بعيدًا عنهما غارقًا فى ذكرياته منذ استقبل هذا الشاب الوسيم الوديع وتساءل بينه وبين نفسه يومها:

«كيف لهذا الولد الريفى الصغير الهادئ أن يصل إلى هذا المستوى من الصنعة التى لا يليق إلا أن يقدمها إلى البكوات، هل كان فى قريته بكوات؟!!».

وتذكر ما قاله له طاهر فى لحظات صفاء ومؤانسة: **«أنت تتعجب يامعلم أن يكون شأنى هكذا وأنا القادم من بلاد الفلاحين، وأنا نفسى أتعجب كيف أحببت هذا العمل الذى ألقونى به رغمًا عنى وأنا على مقربة من دخول الجامعة.. كان المطلوب منى أن أملأ فراغ الصبى الذى هرب. وفيما بعد أيقنت أنه لابد من أن أملأ فراغ حياتى.. كنت أشترى المجلات وأقص منها صور كل الفنانين ولاعبى الكرة المصريين والعالميين، وأحتفظ بها ملصقة فى دفاتر الرسم ذات الورق السميك، لم أكن أعرف السبب سوى أنها أمنية تتراوح أمامى فى أن أنجح فى تحقيق كل هذه القصات لأناس لا أعرفهم، ثم جربتها فى بعض أبناء بلدى، وعندما عثرت على إعلاناتك فى الصحف والمجلات صرت أتحدث مع زبائنى فخورًا بأن لافتة الحلاق تقف الآن بجوار لافتات الأطباء والمحامين، وأن هناك حلاقًا يكتبون عنه كما يكتبون عن الفنانين، وقلت لهم إنك ستفعل مافعله محمد عبد الوهاب الذى جعل المغنواتية مطربين، وصرت أقضى يوم إجازتى فارًا من البلد إلى هنا .. أقف أمام الصالون، وأتخيل نفسى أحد عماله المحظوظين..»**

* * *

وعلى سريره بالمستشفى اضطربت خواطره عندما لمح شبحًا لرجل يشبه فى طوله ومشيته والده زين الدين، وعندما لمح السيد النحال يلحق به مسرعًا أيقن أنه أبوه، وفهم السيناريو الذى حدث.. وعندما جاءوا «بالترولى» ليحمله إلى غرفة العمليات جاءت فوزية وهى تسير خلفهم صامتة حزينة، وعندما مددوه على العربة وراحوا يدثرونه

بالملاءة رنا إلى فوزية بعينين دامعتين:

ـ «هل أتى السيد النحال بأبى ليقرّ بموافقته على بتر ساقى؟».

ـ «أجل.. ومن الذى أبلغك بذلك؟».

ـ «لم يبلغنى أحد، ولكن هذا ماحدث مع فريد هنيدى عندما بتروا ذراعه..»

ثم صمت قليلًا قبل أن يتساءل «هل هى صدفة أن يتدخل القدر ويهدى أشلاءنا شلوًا شلوًا إلى السيد النحال؟ ما أتعس من تقف الدنيا فى صف أعدائه.. السيد النحال لم يكن ليطيقنى أنا وفريد هنيدى، فليهنأ بأشلائنا» .

* * *

أفاق فوجدهما بجواره: والده الأسطى زين الدين حالق رءوس أهل البلد، ومدمى أقفية عماله بكفه الهائلة، وعلى مقربة منه الأسطى مصطفى عباس مصفف شعر الصفوة، وباعث نهضة الحلاقين بإعلاناته الشهيرة.

ناداه من خلال ابتسامته الموجوعه: «أبى.»

ـ «نعم.. نعم ياطاهر تحت أمرك ياقطعه من كبدى.»

ـ «هل ستأخذنى إلى البلد؟.»

ـ «محمولًا على رأسى معززًا مكرمًا.»

ـ «حملى ثقيل.»

ـ «بل أخف من ريش النعام.»

ـ «ألن تضربنى مثل زمان؟.»

ـ «لن أكون أنا والزمن عليك يا طاهر..»

ـ «وأمى..؟.»

ـ «رحلت يا ولدى.. نادت عليك وهى تموت..»

ـ «الحمد لله أنها لم ترنى مهانًا ذليلًا..»

ـ «لا ذل ولا هوان، كلنا خدم لديك.»

ـ «وجدى؟».

ـ «مات هو الآخر، لم يغفر لنفسه ما فعله معك، وأنا مثله.»

ـ «والدكان؟.»

ـ «أخذوه فى توسعة المسجد، فهجرنا الصنعة.»

ـ «ثمان سنوات يحدث بها كل هذا؟.»

ـ «منذ يوم ٢١ أكتوبر عام ١٩٥٩ الساعه ١١ صباحًا.»

تنحنح مصطفى عباس قبل أن يتحدث: «طاهر يا حاج أنكر عنى أنك موجود على قيد الحياة.»

ـ «له الحق، فأنا لم أكن موجودًا فعلًا منذ أن خسرته».

* * *

هرع إليه فى المستشفى كلّ من كانوا قد ظنوا أنه مات: الأهل والجيران، وراحوا يتناوبون زيارته، وفى زيارة دامعة همس له رأفت إبراهيم قائلًا:

ـ «فريد هنيدى حملنى هذه الرسالة، عد إلى بلدك بجرحك الوحيد، بدلًا من أن تتراكم جروحك بفعل الهوان إن بقيت فى القاهرة.»

فقال له دامعًا: «فوزية قالت إنها ستحملنى فوق رأسها.»

فقال رأفت بحزم: «كن عمليّا ولا تشتر الوهم، كلّ من زاروك لم يشاهدوها عندك.»

ـ «تزورنى فى مساء يوم إجازتها..»

ـ «كسائر الزوار، وتلك إشارة لابد أن تفهم مغزاها.»

ـ «يجب أن تزورنى فوزيه غدًا، إذن فتعالوا لنقلى بعد غدّ.. كانت بيننا علاقة حب مليئة بالبهجة، كم أصبو إلى وداع نبيل.»

ولما جاءوا لحمله فى مساء الغد، سأله رأفت: «هل زارتك فوزيه بالأمس؟.»

لاذ بصمت حزين.. ولم يرد.

وفى الطريق إلى البلد ظل غافيًا بينهم فى السيارة، لا يشاركهم الحديث حتى لو صحا من غفوته.

وقرب البلد استيقظت حواسه، وعند ترعة وجه البلد صدرت منه شهقة مكتومة:

ـ «أين شجرة ذقن الباشا.. هل قطعوها؟»

كانوا قد نسوها، فقال لـه أبـوه «يـا اااه يـا طـاهر.. شـهقتك أخـافتنى.. هـل مازلـت تذكرها..؟ شجرة وذهبت إلى حال سبيلها.. هل هذه مشكلة؟.»

فقال له عمـه: «ماكينـة التطهـير أهـدلت الجسر، وعـرت الجـذور، والريـاح أكملـت عليها.»

وعلق أبوه ساخرًا: «الباشا.. وكل باشا اقتلعته الرياح، فهل نبكى على ذقن الباشا؟.»

* * *

هيئوا له غرفة جده ـ المطلة على الشارع ـ بعد أن ظلت مغلقة ردحًـا مـن الـزمن بعـد موته، لم يتشاءم قدر ما انتبه إلى أن هذه الغرفة كانت تحنو على عجوز، والآن صارت تضم عاجزًا.. أتى بمن رتب له فى دولاب جده محتويات حقيبة الملابـس التـى أتـى بهـا معـه.. وراح يتأمل كل قطعة منها وهى تتكدس فـوق سـابقتها ويتسـاءل: «متـى و كيـف وأيـن سيمكننى إعادة ارتداء هذه الملابس الفخمة؟»

وكانت أيام وصوله الأولى مليئـة بـالأنس والمؤانسـة، فهـم يجيئـون تباعًـا ليجالسـوه ويطمئنوا عليه، يتحدثون، ويثرثرون، ثم إذا انتهوا مما عندهم جلسوا فى انتظار مـا سـوف يقوله لهم عن رحلته ذات السنوات الثمان، ولأنه لا يملك ما يمكنه أن يرويه لهم ممـا يثـير الفخر، فقد لاذ بالصمت وهو لا يعلم أن عمه الفلاح الطيب أطلعهم عـلى صـور كثـيرة تجمعه بالفنانين ومشاهير الكرة مما جعلهم فى شوق أن يحكى لهم عن هؤلاء النجوم الذين صادفهم فى رحلته الغامضة..

جاءته رسالة من صديقه فريد هنيدى: «سأزورك بعد أن ينفض السامر حولك» .

وفهم أن صديقه ـ المصاب مثله ـ مازال يعيش مصيبته بقلب موجوع، وأنـه يتحاشـى الجمع بين مصيبتيهما أمام الناس فى مكان واحد.. ولما زاره بعد منتصف ليلة دافئة سأله:

ـ «هل تتوارى من مصيبتك.. أم تواريها يا فريد؟»

ـ «أسوأ ما فى مصيبتنا أنها معلنة، والأسوأ من ذلك أن رأى الناس فيها معلن»

ـ «إذن، فشفاؤنا سيطول بطول أعمارنا»

ـ «ولذا، فقد رحت أبحث عنه فى القرآن وكتب الدين، وقررت الالتحاق بكلية أصول الدين»

ـ «هيهات أن أجد لنفسى ملاذًا مثلك»

عمد فريد إلى تحويل دفة الحديث لمنحى آخر: «يحكون عن صورك مع الممثلين ونجوم الكرة.»

فرد طاهر:

«ويحكون عن صورك فى منصات تتويجك بالبطولة. والأضواء المنسكبة على عضلاتك»

ـ «هذا ما صرنا نملكه.. مجرد صور لماض يمعن فى الغياب..»

فقال طاهر:

«وأسوأ ما فيها أنها ستذكرنا بمأساتنا، فاسترجاع ذكريات الماضى فكرة لن نقوى عليها. كلٌّ منّا فقد جزءًا من جسده، ولكنى فقدت كل حياتى: فوزية»

ـ «و أنا فقدت ما هو أنبل منها: البطولة.. والمجد»

ـ «يكفيك أنك اقتربت من هدفك بمهارة وإصرار تحسد عليهما»

ـ «تلك هى كلمات العزاء التى لا تجدى نفعًا..»

ـ «أراك ترفض كل شىء»

ـ «ولكنى اكتشفت شيئين: ضآلة الإنسان، وسمو الحيوان.»

ـ «تقصد الجمل قاتلك»

ـ «ليس قاتلى.. بل ناقلى إلى السمو.. انتحار الجمل بعث لى بالرسالة»

ـ «تقول برسالة؟»

ـ «رسالة وضعنى فيها أمام نفسى، لم أكن أعرف الصبر فضربت الصغير الذى غاب عنى بالفاكهة، ولم أكن أعرف العطف والحنان فلم أغفر للصغير حنوه على الجمل بإطعامه قبل إطعامى، ولم أكن أعرف المؤازرة التى تبناها الجمل فوقف فى صف الصغير وانتقم له منى، ولم أكن أعرف الندم فلم أندم على ضرب الصغير عندما تحولت عنه إلى ضرب

الجمل، ثم ما ضبطت فيه نفسى متلبسًا بالضعف فلم أجرؤ على الانتحار مثل هذا الجمل الشريف، لم أكن حليمًا و الحلم سيد الأخلاق، ولم أكن رحيمًا والرحمة فوق العدل، ولم أكن قنوعًا والقناعة كنز لا يفنى..»

ـ «فجيعتك قادتك إلى الفلسفة»

ـ «وأزالت غشاوة كانت تمنعنى من رؤية معنى الحياة السوية، فلقد فهمت متأخرًا أن الله سما بالإنسان إلى أعلى المراتب دون سائر مخلوقاته ووضع عقلنا فى أعلى نقطة من بنائنا الشامخ، وأن الفعل الدنىء الوحيد الذى تنخفض فيه رءوسنا لمستوى مؤخراتنا هو الجنس الذى كنت أسعى إليه فى مغامراتى الشقية. الجنس الذى حولنا مهمته النبيلة فى الحفاظ على استمرار الحياة إلى مجون المخادع وبلاهة السفه واستعراض الفحولة المقيتة بعضو ذكرى فى حجم الإبهام الأخرس الذى قد نخجل به من أنفسنا إذا قارناه بعضو الحمار.. الحمار ينتصر.. أما سواعدنا فمهما اشتدت فهى فى النهاية عقلة من القصب إذا قبض عليها فك الجمل.. مصيبتى أننى لم أكن أحس بهذه المعانى، ولم أشعر بالملائكة التى كانت تقاوم فى داخلى صخب الشياطين»

فقال طاهرًا: «الشياطين تلهو.. وتمتلك الساحة..»

ففهم فريد أن طاهرًا يحيله إلى الحديث عن شيطانىْ حياته: السيد وأمير النحال، فقال له: «هذان يهربان من نفسيهما المقيتتين، فيحطمان مرايا الآخرين قبل أن يشاهدا صورتيهما فيها» ولما علق طاهر على ذلك باقتضاب قائلاً: «لقد بدأ بتحطيم مرآتى».

لم يشأ فريد هنيدى أن يجاريه فى قوله، فقى رأيه أن فوزية هى التى بدأت بهذا التحطيم.

* * *

مضت عدة شهور قبل أن تتهيأ لحلمى عبد الباقى فرصة القيام بأول زيارة إلى فيلا الزيتون فى سهرة من سهرات السيد النحال التى وصلته بعض أخبارها .

وكان الجديد عند حلمى عبد الباقى فى هذه الزيارة هو تلال من الأحاديث والتعليقات والمخاوف والهواجس حول ما جاء بخطاب الرئيس، بشبرا الخيمة فى عيد العمال بمناسبة مرور ١٥ سنة على الثورة.

أما الجديد الذى كان لدى السيد النحال، فهو إحضار شخص جديد يشارك فى التخديم عليهم، وما إن رآه حشمت بركات حتى سأله:

ـ «وأنت بقى اسمك إيه؟»

ـ «كيمو..»

فأطلق حشمت ضحكة عالية:

ـ «والله عارف إنك حتقول كده.. اشمعنى إنت.. زمايلك فيهم: «كلّه» و «سردينه» و «خالد بق».. مفيش غير السنى اسمه اللى زّينا.. أمال كنت فين طول السنين دى؟»

لم يكن «كيمو» يفهم أنه أمام أهم شخصية فى هذا المكان، فأجابه بغلظة وقرف:

ـ «كنت مطرح ما كنت.. وأنت إيـ....»

فقفز السيد النحال من مكانه إلى كيمو وسحبه من ذراعه بهدوء واتجه به إلى الباب المفضى إلى السلم.. وغاب قليلًا ثم عاد باديًا عليه الحرج.

«آسف ياباشا.. هو ربنا خلقه كده...»

لم يهتم حشمت بهذا الحادث العابر، ومضى إلى حديث مع بعض رجاله تارة وفايز فودة تارة، فى حين كان حلمى عبد الباقى يتأمل هؤلاء الشباب الذين يتدافعون إلى حلقة السهرة بالأطعمة والمشروبات وتصله بعض أسمائهم التى نطقها حشمت بركات.. ثم يعود إلى تأمل هذه القاعة المجهزة كمكتب وجلسة فسيحة فى وقت واحد، ثم ظهور عنتر مكاوى الذى سبق له أن شاهده ولاحظ أنه كان يمسك بيده حفنة من الأوراق اتجه بها إلى حشمت بركات الذى تأملها مسرعًا، وهتف:

ـ «فواتير»؟.. اعتمدها يا معوض.. ولو إنى شامم فيها ريحة الكباب والذى منه..»

ولوحظ أن السيد كان يكرر ترحابه بحلمى عبد الباقى وهو فى جلسته بجوار صديقه فايز فودة يتهامسان، ولم تتناثر من عندهما سوى كلمات قليلة منها كلمة المخبول التى وصلت إلى حشمت بركات، ففهم على التوّ أن صديقيه يتحاوران حول خطاب عبد الناصر الأخير فى شبرا الخيمة الذى وصف فيه الحبيب بورقيبة بالمخبول.. ووصم فيه الملك فيصل والملك حسين بالخيانة.. والتبعية والتواطؤ مع المشروع الأمريكى ضد الأمة

العربية، سارع حشمت بركات فأبدى مخاوفه من بعض الكلمات التى وردت فى خطاب الرئيس، فما معنى أن يكرر الرجل اعتقاده بأن أمريكا وإسرائيل لن يغفروا لنا ـ أى لمصر ـ قيامنا بضرب الأحلاف ووقف نفوذ أمريكا، وإصرارنا على الوصول إلى نوع من الحرية الاجتماعية، ودعوتنا إلى عدم الانحياز، وإيقاظ شعوب المستعمرات باعتبارنا مثل حى أمامهم فى معركة ٥٦.

وراح حشمت بركات يؤكد أن عبد الناصر لديه إحساس أو تأكيد أنهم يعدون العدة لضربه.. فما معنى تكرار قوله أنهم لن يغفروا لنا، ووضح أن حلمى عبد الباقى يتأمل هذا التفسير بدليل أن عبد الناصر فى هذا الخطاب تحدث عن تواطؤ الرجعية والملكية مع الاستعمار كما حدث قبل معركة ١٩٤٨ التى تعاون فيها الملك عبد الله جد الملك حسين مع إسرائيل ولم يكن أحد يعلم أنه يتصل باليهود فى عمان بعيدًا عن حالة التضامن العربى كما يفعل الملك حسين الآن.

وهنا تساءل فايز فودة الذى وضح أنه استمع إلى الخطاب:

ـ «وهل فى ظنكم أن عبد الناصر الذى جمع حوله كلّ هذا العدد من الأعداء فى الداخل والخارج سيمكنه أن ينتصر عليهم؟. ياسادة، لاتنسوا أن الكثرة دائمًا تغلب الشجاعة..»

فلاحقه حلمى عبد الباقى:

ـ «ولا تنس أن الحق فى النهاية يهزم الباطل»

يمم فايز وجهه ناحية حلمى:

ـ «وأين الحق فيما قاله حول رجل اقترض عشرة آلاف جنيه وبنى مصنعًا فى شبرا الخيمة، وعندما أمم مصنعه وجده يمتلك ستة ملايين من الجنيهات؟ كيف يحاسب الناس على أرزاقهم؟..»

فقال حلمى:

ـ «إنه لا يحاسبهم على أرزاقهم، بل على سلوكهم، وقال إن الثراء الفاحش هذا كان خلفه استغلال فاحش للعمال، فهو يعطى للعامل يومية خمسة قروش فى اليوم.. والعمال يقيمون فى غرفة تضم من أربعة إلى عشرة أفراد.. منتهى البؤس، وهذا المليونير يقيم

الحفلات فى قصره ويجلب الطعام من باريس بالطائرة.. ألم يذكر أن هناك من يملكون ٢٠ مليونًا و ٣٠ مليونًا؟ من أين لهم بكل هذه الثروة فى دولة فقيرة سوى بالاستغلال الفاحش؟»

ولم يجد السيد النحال كلمة واحدة لديه يقولها فى هذا الحوار المشتعل بين ثلاثة، فانضم إلى حلقة المستمعين وهو خجل من نفسه، فخميسة تؤرخ لحبّها له منذ وقف خطيبًا أمام المسجد مؤيدًا ثورة عبد الكريم قاسم فى العراق. إذن فماذا حدث له؟.. ولأنه لا يعرف ماذا حدث له.. ظل صامتًا..

وفى لحظة ما قبل أن تدور الأحجار الكريمة وتشتعل الرءوس بالكيف الذى يدور بعدالة بين كل الحضور وقبل أن يستأذن حلمى عبد الباقى مال على السيد النحال، وقال له:

ـ «زوجتى ذهبت إلى المحل دون أن تقوم بتعريف نفسها لأحد، وكانت السيدة حرمكم هناك.. فلو سمعت كيف تمتدحها فسوف تتأكد أنك تتمتع بأكثر حسنات الدنيا وأبهاها»

وقال السيد متواضعًا: «أشكرك.. وأشكر بهيرة هانم، وأخشى أن تكون الهانم قابلت فوزية الموظفة ولم تقابل خميسة زوجتى»

ـ «لا..لا.. هى تذكرها بالاسم.. عمومًا حظ سعيد.. عن إذنكم أيها الجمع السعيد.. شكرًا على الضيافة يا أستاذ سيد.. تصبحون على خير»

* * *

تعاظمت بداخله شخصية حلمى عبد الباقى، وكعادته راح يفكر كيف يستثمرها لصالحه، كيف يوظفها فى رحلة مشواره القائم ذات الهدف البعيد.. البعيد جدًّا حتى لا يكاد يفسره.. كل ما هناك أنه جبل على تحويل كل شىء لصالحه من مواقف وبشر: فتيان، عنتر مكاوى، خميسة، مارى، حكمت، وبشاير، فايز فودة، حشمت بركات.. حتى العظماء الخمسة أتى بهم بصدفة لم ينتظرها عندما قضى ليلتين فى السجن على يد فتيان.

«فهذا الرجل المتحضر وعاء من الثقافة والوطنية اقترب من عبد الناصر.. وأثار

إعجابه.. وتمتع بتوجيهاته.. فكيف لى أن أقترب منه سوى بالعودة إلى حبى القديم..حبى الذى هجرته من أجل المال.. القراءة.. والكتابة.. إذ يجب أن أكون نـدًّا لـه فى المناقشات التى تدور ويجرفنا إليها بطريقته العذبة.. فكيف لى أن أهمل ضمن كل ما أهملته الاستماع إلى خطب عبد الناصر.. فما أكثر الموضوعات التى طرحوها نقلاً من خطابه الأخير.. إذن، فسوف أبدأ بأسهل ما يمكننى البدء به: الحرص على متابعة خطب الرئيس، ثم جلب الصحف والمجلات اليومية، ثم استطلاع رأيه فى عناوين بعض الكتب التى يمكنه أن ينصحنى بها.. وهكذا سيمكننى الاقتراب من هذا الرجل الذى ليس له فى السخافة والحشيش، فلننتقل إلى ملعبه الملىء بالثقافة والعقل «الحسيس» حتى نجد له حلًّا، فأين سيذهب بعيدًا عنى..؟»

* * *

ورغم ما اتفق عليه مع نفسه أن يحرص على متابعة خطب عبد الناصر إلا أنه انشغل عنها بما لديه من مهام عديدة إلى أن تصاعدت الأحداث السياسية بين مصر وإسرائيل ووقف العالم محبوس الأنفاس، وتأكد أن الحرب قادمة لا محالة، خاصة بعد إعلان عبد الناصر إغلاق خليج العقبة ضد الملاحة الإسرائيلية، فانتبه إلى ما يصله من أخبار مثيرة تصاعدت حتى يوم ٩ يونيو، فترك كل ما بيديه وتسمر أمام التلفاز مع الملايين من المصريين للاستماع إلى الخطاب الذى سيلقيه الرئيس حول الحرب الدائرة منذ أربعة أيام مع إسرائيل..

وبعد الخطاب بساعة واحدة صكت سمعه صيحات الشوارع الهائجة ونداءات البشر إلى عبد الناصر أن يعدل عن قراره بالتنحى ومغادرة الحكم بعد الهزيمة الثقيلة التى نالها جيش البلاد فى صحراء سيناء. وهى الهزيمة التى تحول فيها الجيش إلى أشلاء مبعثرة على يد اليهود..